أسرار يعرفها الجميع

شعر

خالد عبد القادر

٣ يوليو

3 يوليو

غريبانِ في الليلِ
لا يطفئانِ شموعهما،
ينظرانِ معاً
في هدايا إلهيَّةٍ،
يشردانِ معاً؛
يرقصانِ معاً؛
يضحكانِ معاً؛
يبكيانِ معاً.
ومعاً ...
ومعاً ...
كلّ شيءٍ معاً.

غريبانِ في الليلِ
ينتظرانِ معاً
يحملانِ شهورَهما
في حريرٍ.
ويقتسمانِ الأملْ.

يقولُ لها:

"أغمضي فتْنتيْكِ،

أمامَهما لا أجيدُ الغزلْ

قُلتِ لي " غنِّ لي"؛

وأغنِّي عن الحبِّ

والرقصِ

والطيرانِ مع امرأةٍ؛

أنتِ لا غيرُ،

لا قَبْلُ لا بَعْدُ.

يا ليتني عقدَكِ، المتلألئَ،

يفصلُ نهريْ عسلْ.

ويا ليتَ قلبي بيُسراكِ،

فِضَّته تحرس الكفَّ

مِنْ لمسةٍ لا تكونُ لِكفِّي،

هواؤكِ

ماؤكِ

أشياؤكِ الخاصةِ

الساعةُ

العطرُ

أقلامُكِ

الوردُ فوق الوسادةِ

فُستانكِ الذهبيِّ،

وأشياءُ أخرى؛ لها فيكِ ما ليس لي؛ لمسةٌ".

وتقولُ لهُ: أنتَ أوّل قلبي

وآخِر روحي.

فخُذْ بيدي

وامشِ بين ذراعيَّ

وامشِ إليَّ.

أحبّك يا صاحبي
وأخي
وحبيبي
وطفلي.
أريدُكَ لي كاملاً حاضراً،
لا شريداً عن الأهلِ،
لا تتعثَّرُ في الناسِ،
لا غائباً عن تفاصيلِ يومي.

غريبانِ في الليلِ
لا يطفئانِ شموعهما،
ويقولانِ: كُنّا معاً،
ثم صرنا معاً.
وحدنا ... ومعاً نحتفلْ.

أغنية ليل

يا ليلُ؛
هل تعرفينَ ملامحَ صدري:
نُدوب التجاربِ،
أخفي مواضعَها بالقميصِ
وبالضحِكاتِ،
جروح الأظافرِ
من أثرِ العابراتِ،
ولسْع السجائرِ
في غُرفِ الذكرياتِ،
ووشْمُ الغريبِ، وُلِدتُ بهِ،
وامْتثلْتُ لمدلولهِ،

والسفرْ
والسفرْ

والمقامُ الرحيلُ،
الذي كان في البدءِ تجربةً
واستمرَّ
الطريقُ الطويلُ
الغموضُ الدليلُ
الغيابُ الأثرْ

والمطرْ
والمطرْ

والشتاء الذي يشرخ الرئتينِ
ويمسكُ بالقلبِ
– أبيضَ من غير سوءٍ –
ويدهنهُ بالخطرْ

والليالي التي ...
والليالي التي ...
والسهرْ
والسهرْ

والزياراتُ، ضيفاً على الأهلِ،
والبابُ لا يُنكرُ القلبَ
لكنّهُ يسألُ الوجهَ:
" كيفَ تغيَّرتَ؟
أينَ اعْتراكَ الغبارُ؟
متى حاصرتْكَ التجاعيدُ؟
ماذا يشدُّكَ للغيبِ، والغيبُ أقربُ
ممّا تظنُّ "

يردُّ الشجرْ:
"لا يضلُّ
يسافرُ في زمنٍ يتلاشى
يسافرُ في مدنٍ تتلاشى
ويرجعُ ... يعرفهُ الظلُّ
هذا المسافِرُ فيهِ
أجادَ هزائمَهُ... فانْتصَرْ "

فيا ليلُ؛
هل تقدرينَ بلمسةِ كفِّيكِ
أن تمسحي كلَّ هذا،
وأن ترسمي ياءَكِ الغائبةْ
فهلْ تقدرينَ
وما بين صدري و كفيّكِ
بحرٌ،
تأخّرَ عن موعدِ العاصفةْ
فَحنَّ وحاصرَهُ البرُّ
حنَّ ومرَّرهُ الصبرُ

حنَّ
بكى
واشتهى
فارتمى
فوق خلجانِهِ
واحتمى
بالصخورِ من العاطِفةْ

وانْتظَرْ
وانتظَرْ
وانتظرْ

ونحنُ اللذانِ انْتظَرْ.

لولا قميصكِ

كبَرْنا
وطالَ الطريقُ

كبرنا
على سَفَرينِ من المِلحِ
والخطوةِ الذابلهْ.

كبرنا
غريبيْنِ
عن كلِّ شيءٍ سوانا،
مَطيْرينِ في مُدنٍ قاحِلهْ.

سقطْنا
من الشجر المرِّ
فوق الرمالِ،
انْتظرنا
هنا أو هناكَ
قلائدَ في عُنُقِ الوقتِ،
والوقتُ مسْبحةٌ في يدِ الشمسِ،
والشمسُ سيَّارةٌ أهملونا،
فلم يحملوكِ إلى مِصْرَ معْهم
ولم يأخذوني إلى الحجِّ معْهم
ولم يُخْرِجوني من الجُبِّ.

مرُّوا،
ولم يلتقطْني سواكِ.
ولولاكِ،
لولا قميصُكِ،
ما رُدَّ لي جسدي،
ما خرجتُ على هيبةِ العائلةْ.

ثقبنا سفينَتَنا
كي نطيلَ الصلاةَ على البحرِ
غصْباً تخطَّفَها الموجُ.
قلنا: لنا ما لنا
والبلادُ بها مُضْغَةٌ فسدتْ
أفسدتْ سائرَ الأرضِ،
إلاّ اللذَيْنِ " هُما نحن"
قيلَ: اسْجُدا للوداعِ.
فلمّا أبَيْنا،
حَمَلْنا صخور التمنّي
لِنصعَدَ/
تسقطَ/
نهبطَ/
نحملَها من جديدٍ
ونصعدَ/
تسقطَ/
نهبطَ
آهٍ من الحلْمِ
آخِرُهُ لا يرى أوَّلَهْ

فصبرٌ جميلٌ
ولا تسألي: "أينَ "
أينَ!
متى كان هذا السؤالُ
يدقُّ على بابِنا، ويفتِّشُ
أشياءَنا، ويبعثِّر ليلاً تزيَّنَ
من أجلِنا ؟!
ما المكانُ سوى
فجوةٍ بين كفِّيكِ،
حينَ تضمِّينَ وجهي
ولا تجدينَ سوى غائبي.
ما المكانُ سوى
خطوةٍ في بدايةِ ركضِكِ
في النومِ، حينَ تَحسِّينَ
لا تلْمَسينَ سوى
"وحدكِ" الثانيهْ

فلا تسألي،
إننا خاتَما الحبِّ
في الأرضِ،
آخِرُ من يحفظُ الأغنيهْ.

لؤلؤ رخو

أنا لحبيبي،
تغنِّينَ للبحرِ.

لا تفْرُكي رملَهُ بالحنينِ،
ولا تتركيهِ يفضّ أساطيرَهُ
كي يسيرَ وراءَكِ
حتّى منازِلِ أهلِكِ،
قد يقتلونَ المؤبِّدَ في الملحِ؛
هذا الذي لم يذُقْ
مثلَ صوتِكِ من قبلُ.

لا تملئيهِ بما لا يطيقُ
من الغُربةِ الجسديَّةِ،
حين تضيئينَ في قلبِهِ
باثْنتينِ
من اللؤلؤِ الرَّخْوِ،
حينَ تشفِّينَ عن فِضّةٍ، وردةٍ
تتنفَّسُ في الموجِ
والموجُ ثورةُ شامَتِها
فوقَ عقدةِ خاصرةٍ:
سُرّةٍ من حريرٍ

وأنْتِ تفكّينَ شعرَكِ
ينْسى
(بهذا السوادِ
الجميلِ
الطويلِ
القديم)
مسائِلَهُ في حساب النجومِ،
يمدُّ ويجْزرُ حسْبَكِ .

حينَ تغنِّينَ للبحرِ،
غنِّي لهُ كي ينامَ،
ولا تدفعيهِ
إلى آخر الروحِ،
لا تُثْقليهِ
بحمْلِ عواطفهِ
والترجُّلِ عن سطوة الماءِ
والسيرِ فوقَ جفافِ المدينةِ،
في البحثِ عن جسدٍ يرْتديهِ.

" أنا لحبيبي "
تغنِّينَ ...
أمّا أنا...
سوفَ أجلِس والبحر
قربَ المكانِ الذي
كانَ، أو كنتُ،
بحراً ...
نغني : أنا لحبيبي.

لا أقولُ:
يدايَ ترتجفانِ،
أو جسدي ينازعني ويعْرقُ دمعَهُ،
ويضيقُ عنّي.

لا أقولُ:
حرارتي انْخفضتْ،
فَسيَّجَني الشتاءُ؛ شتاء يونيو.

لا أقولُ:
حرارتي ارتفعتْ،
فأشعلتُ السجائرَ باحتكاكِ يديَّ
واحترقَ السريرُ.

ولا أقولُ:
أصابني الهذيانُ،
وانشغَلتْ ظلالُ الليل عنّي
بالحديثِ عن المريضِ.

ولا أقولُ:
مرضتُ بالحُمَّى،
فأزْمَنَني المسكِّنُ
والمنوِّمُ
والمخدِّرُ
والسجائرُ
والكحولياتُ
والصبرُ الجميلُ.

ولا أقولُ ولا أقولُ
فكلُّ ما في الأمرِ أنّي
أشْتهيكِ ..

غائباً عمّا أرى
أنْشقُّ عن جسدٍ تعانقه المدينةُ:
- زوجةُ الجارِ المسافرِ
لمْ تزلْ تسقي حدائقَها، فيجرحها
عزوفُ العازبِ المنسيِّ عنها،
والغموضُ وكثرةُ الأعذارِ
تجرحها،
ويجرح رغبتي صبّارُ شرفتِها،
وألبومُ الزفافِ،
وصورةٌ فوق الجدار لطفلةٍ تبكي،
وتجرحني الأغاني العاطفيَّةُ
فوقَ حبلِ غسيلِها.

أنْشقُّ عن جسدٍ تقلِّبُه الفنادقُ:
- بنتُ ليلٍ
تشتري بنقودها ولأَّعتينِ؛ لها ولي،
وزجاجتيْ خمرٍ،
وتحجزُ غرفةً في فندقِ الخيَّامِ،
نقضي ليلةً في لعبة الأوراقِ،
ترقصُ حين أسألها
عن الماضي، وأصمتُ
حين تسألني.
ونرحلُ في الصباح بلا وداعٍ.
نلتقي في البارِ، تجلسُ،
تسألُ الجرسونَ عن أحوالهِ،
ويرنُّ هاتفها، فتخرجُ
كي تؤدِّيَ ليلَها.

أنشقُّ عن جسدٍ تقبِّلُه المداخنُ:
- في الشوارعِ ذاتها
أمشي وتمشي،
في الشوارعِ ذاتها
لا أشتري منها عقودَ الفُلِّ،
لا أعطي الكلامَ ولا العيونَ
لعطرِ وردتِها.
وفي ذات المقاهي نلتقي،
فتقولُ لي : " يا سيِّدي؛
إن لم تُرِدْ فُلاً فلا تجرحْ،
لماذا كلمّا ألقاكَ
تُغمضُ عن كلامي
قلبَكَ المدهونَ بالأسفلتِ ؟!

لي جسدٌ يفكّر فيكَ،
لا أهلٌ ولا بيتٌ،
فخُذني إن أردتَ،
أو اترُكِ الكورنيشَ للعشّاقِ"

تطردنا المقاهي
تُسدلُ الأبوابُ قبلَ الفجرِ،
أتركها تغنّي، في الشوارعِ ذاتها:
"ويا وردُ؛
من يشتريكَ
وأنتَ الفقيرُ الجميلُ
وأنتَ القليلُ
المدافِعُ عن حقّه في الهواءِ
وأنتَ القتيلُ
بما أورثتْكَ الطبيعةُ
من جسدٍ فائرٍ ومريضٍ
بحبِّ الحياةِ وبالغرباء"

أنشقُّ عن جسدٍ تعلّقه القلائدُ:
– لستُ سائحةً لتشرحَ لي
رموزَ الكرْنكِ،
السيّاحُ لا يأتونَ في فصلٍ خطيرٍ
مثل هذا الحبِّ.
جرِّبْني مع الفودكا
وجرِّدْني من المدنِ الضبابِ.
يكُذِّبُ المستشْرقينَ القمحُ في جسدي،
وشامبليونُ أخطأ
حين حاولَ أن يفُكَّ رموزَ صدرِكَ
يا لهذا الحقْلِ!

يا قدِّيسُ؛ إن الجنسَ فعلُ الخلْقِ،
فاغفرْ لي وللإسْكِنْدِنافيّاتِ أمثالي
وخلِّصْهنّ بالخطأ الجميلِ.

وقلتُ: هذا الحقل منذورٌ لسيدةِ الجهاتِ
سليلةِ الرمل النقيّ.
ولِدتُ من شرْقينِ
جاءَ أبي مع الغزواتِ
من شبه الجزيرةِ،
ثمَّ من أقصى شمال المغرب العربيِّ
حتى قريةٍ في مصرَ
كان غناءُ أمّي يفتح الصحراءَ
في وجهِ الأُموميينَ.
والتَقيا، فكانَ النذرُ
قلْبَ الإبنِ للفصحى،
وكانا يقصدانِ أميرةً شرقيّةً.

أنشقّ عن جسدٍ
وعن جسدٍ
وعن جسدٍ
وعن زمنينِ:
ماضٍ؛ يحفظُ الأخطاءَ
حتّى لا أكرِّرَها،
ويخْفيها فأخطئُ مرةً أخرى.
وأخطئ كي أدافعَ
عن وجودِ الفعلِ (كانَ)

وحاضرٍ : ماضٍ
يلوِّحُ من بعيدٍ،
لا أرى منهُ
سوى الظلّ السريع على تجاعيد المكانِ.

خسرتُ من المكانِ الوقتَ
في زمنينِ يتَّحدانِ
والآتي غموضٌ في غموضٍ

مُكْرَهٌ بَطَلٌ
إذا كان اتجاهي
لا يناسبُ عقربَ الساعاتِ،
إن وقفَ الزمانُ مع المكان حراسةً
للسجنِ، وانتظرا
زماناً في مكانٍ أو مكاناً في زمانٍ
كي أكونَ ...
فمُكْرَهٌ بطلٌ أنا.

أنشقّ عن أهلي،
وعن أصحابيَ الموتى،
وعن وجهينِ دَوَّارينِ للمدنِ القُرى،
وعن القطارِ / الترعةِ / الصفصافِ / جمّيزِ السبيلِ/
عن النخيلِ / البئرِ / نعناعِ الجنينةِ/
عن حمام الجُرنِ /
عن صمتِ القتيلِ وطلقةِ الثأر القديمِ
عن المدافنِ والضريحِ ...

عن القطارِ / عن المداخنِ / والمصاعِدِ /
والكلامِ الرخو في لغةِ الليالي /
عن سماءِ القَشّ / عن عِزَب الصفيحِ /
عن الميادينِ الصغيرةِ في الضواحي

عن طريقِ البحر فيما بيننا،
عن كلّ ما حولي
من التفصيل و الإجمالِ،
أخرُجُ واحداً
متهيِّئاً للموتِ فيكِ

أحبّكِ، ابتسمي
وقولي في دلالٍ:
"مُتْ عليَّ"
وخبِّئي فهدينِ وثّابينِ عن كفيَّ
وابتعدي
أو اقتربي
خذي ما شئتِ منّي،
واتركي ما شئتِ منكِ
ونحنُ مُنشغلانِ في ليلِ الأريكةِ
عن هواءٍ ليس يفصلُ بيننا.

لا تخرجي منّي
ولا تدَعي يدي.
كفّانِ تشتبكانِ
لا كفّانِ ذاهلتانِ في الفوضى

بكيتُ ...
ولا أقولُ بكيتُ من وجعٍ،
ولكنّي بكيتُ
لفرط ما قلتُ : اشتهيتُ.

في فضْلِها عمّا سِواها

خطأٌ جميلٌ
بالقصيدةِ، يُخْرِجُ المعنى
إلى معناهُ في وضح التجلِّي.
لحْنُها
يهتزُّ في صخب الجماليّاتِ.
لا .. لم تكتملْ
أبداً،
و تخرجُ نصفَ عاريةٍ، و ترقصُ
في مدارِ تمامِها.
نقصانُها نصفُ الجمالِ،
صعودُها
لأنوثةِ الكلماتِ يُكْملُ
نصفَه الثاني.

هيَ امْرأتي، أجمِّلها
بما أوتيتُ من لغةٍ
ومن جرحٍ، أكلِّلها
بتاجِ الليل، أُضْحِكها،
أدلِّلها وأحمِلها
على كتفيَّ
يا امرأتي؛ بكائي
عُطْلةٌ للوقتِ، كالآحادِ،
تأتي كلَّما
ملَّ الزمانُ رتابةَ الأيامِ

واختار الصعودَ إلى
سماءِ البحرِ نُوتيٌّ
وغنَّى للنوارسِ من هناكَ

بكيتُ
من فرحي ومِنْ
وجعي ومِنْ
أمْسي ومِنْ
يومي ومنْ
غيمٍ يسافر للأمامِ، ظننتُهُ
يأتي غداً. وغدي
يؤخِّر خطوتي حتَّى
يجاوزَني ويمضي
مُطلقَ اليدِ واللسانِ.
بكيتُ مِنْ
عجْزي عن المعنى،
وأنتِ أمامكِ المرآةُ تهتفُ:

" قبِّليني .. قبِّليني، واطْمئني
خلفكِ الدنيا، و خلفكِ
شاعرٌ يرتجُّ في المعنى، ويبلغُ
حسُّه وصفي
أمامكِ معجزاتُكِ، فانْظري
يرِث انعكاسَكِ في المرايا شاعرٌ
ويقولُ : أمّي"

– يا ابْن قلبي؛
نَمْ، فكُحْلي
لن يكونَ لغير يُتْمِكَ، نَمْ
أتحرسني من الغرباءِ!
أنتَ الآن في صدري، تعضُّ
على أصابعك الطريّةِ، ثمَّ تبكي.
جُعتَ يا طفلي!
أتكْبرُ قبل أن ترِثَ الجذورَ،
ويرفعَ النسيانُ هاماتِ النخيل إلى بعيدٍ
عن يدي،
وأهزّ جذعاً، يضحكُ النسيانُ،
تبكي،
والدموعُ تبلِّلُ الشفتينِ
من عطشٍ، وتقْبَلُ مِلحَها!

سأفتِّشُ الوديانَ عن عينٍ
تراكَ وشعرَكَ المجدولَ، تذهلُها
وتُطربُ ماءها دقاتُ قلبِكَ.
لا تدَعْ قدميكَ فوق الأرضِ، طِرْ.
لا تألفِ الأرضَ التي امتلأتْ
صدًى. لا تسألِ الأرضَ التي
لفظتْكَ و ابتعدتْ. وطِرْ.
لا تركلِ الأحجارَ، فالأحجارُ
قومٌ صالحون ورفقةٌ
للضائعينِ،
أنا وأنتَ
حضارةٌ منسيَّةٌ خلف المكانِ،

أنا وأنتَ
البحرُ حاصرنا،
وغادرَنا الرعاةُ إلى الصعيدِ وأسَّسوا
أسماءَهم. في المغربِ العربيِّ فاتونا
بلا اسمينا.
ومن أيقونةٍ للنِّيلِ في قدميكَ،
تصنع قيدَنا الصحراءُ، والصحراءُ
تقطعُ حبلَكَ السريَّ عنِّي.

لن أغيبَ. الماءُ حيٌّ
في مكانٍ ما. ولن أنساكَ
لن أنساكَ، لن أنسى ...
ولكنْ
هامِش النسيانِ أعلى
من ظلال النخل، أعلى
من غناءِ البدوِ، أعلى
من صهيلِ الريحِ، أعلى
من سمائك يا صغيري.

- لا أريدُ الماءَ، أذكرهُ
وينساني. أنا ابنُ الماءِ، ينكرني
و أبحثُ عنهُ !
لم أخرجْ بمعجزةٍ سوى
لُغتي. أنا البريُّ
لا أفْضي بأسراري
إلى الصيّادِ،

أمَّا أنتِ ...
أنتِ غزالةٌ ركضتْ ونامتْ
في دمي، قالت:
سريري وردةٌ، حنّاءُ رأسي
من نبيذٍ، و الفَراشُ
أصيدهُ برموشِ عيني، الماءُ يجثو
كلَّما قاربتُه ودنوتُ منْ
نفسي على صفحاتِه، ترنو إليَّ
مفاتني، أرنو
إلى جسدي، وأبكي.
أشتهي نفسي.

سأتْركُ عاشِقِيَّ على مشارفِ غابةٍ،
أو قرْبَ نبعِ مفاتني،
وأتيهُ وحدي في جمالي.
لا أطيرُ ولا أسيرُ، وإنّما
أنْسابُ في زمني وأمْكنتي كموسيقا.
ولا أرتاح للإيقاع، يشبهني
فأكسرهُ.
سأترك عاشِقِيَّ على حواف الصخرِ
مجروحينَ بي. أنْسى
قصائدهم على تسْريحتي،
وأعلِّقُ الاسماءَ في قرطي، وأنساها،
وأغلقُ هاتفي. أنا لا أريدُ
اليومَ ميعاداً، ويكفي شاعرٌ
مثل الذي سأزورهُ في ليلِهِ،
سمَّى قصائده بِيائي، قال :
(أدعوكِ الحبيبةَ/
والغزالةَ/

واليمامةَ/
نرجساً ... أغْرى البياضَ بنفْسهِ/
قمراً ... ويملكُ وقتَه بيديهِ/
غامضةً/
حريراً ساخناً/
ناياً تأنّ في المواجعِ/
خِفّةً .. ترتاحُ للمنفى/
حنيناً مُطْلقاً/
وعداً مُشعَّاً في ليالي البحرِ.
يا امرأتي،
لكِ الأسماءُ في لغتي،
ولي نسيانُكِ الفرديُّ
لي هوسي بتقبيلِ الكلامِ
على سريرٍ فارغٍ)

- خُذني على صِفَتي، ودَعْ
حريَّةَ الأسماءِ لي.
يا أنتَ لا تركضْ ورائي،
حصَّتي في الليل أطولُ
من ظنونِكَ،
وابتعدْ، يا أنتَ، عن جسدي،
ولا تحلمْ
بأنّي قد أشارِكُكَ السريرَ، ولا بأنّي
قد أقولُ لكَ : " القميصُ،
قميصيَ، المِسكُ الشفيفُ، اقْدُدْهُ
من حيث استدارتْ فتْنتي "

يا أنتَ لا تحلمْ، فإنِّي واقِعٌ
وهنا أمامكَ، واقترِبْ
كَالصيفِ من جسدي، اقتربْ.
يا أنتَ؛ إن أغمضتَ عينكَ
قد تراني.

خطأٌ جميلٌ
في القصيدةِ، لا يُرَى
سهْلٌ ومُمْتنِعٌ كَفعلِ الحبِّ،
حسِّيٌّ كَسِرِّ جمالِها.
خطأٌ ضروريٌّ،
لتعرفَ أنّها امرأةٌ مسافرةٌ،
وتعرفَ فَضْلَها عمَّا سواها.

– هل أنتِ من روما ؟

سألتُ غريبةً
جلستْ على درج الرخامِ،
وأطعمتْ زوجيْ يمامٍ
يسجدانِ أمامها.
فتنهّدتْ:

– لا .. لستُ من روما،
بلادي لم تزلْ لغزاً عنيداً،
في البعيدِ من المكانِ،
تقيمُ نسياناً
و ترقصُ حولَهُ.
أما أنا ...
فجنوب شيءٍ ما
ولدتُ
شمال شيءٍ ما
تعلَّمتُ احتراسي من غريبٍ
سوف يسألني هنا عنها.
وأنتَ ...
ألستَ من روما ؟

– أنا!
أبداً.
أنا بلدي مقامرةٌ،
وليلٌ في قطارٍ
لا أريدُ بهِ سوايَ،
ووجْهَتي منفًى؛
أفضِّلُه على أن يظهرَ الشرطيُّ
بين رُكامِ أغنيتي
وبيني.
هل تحبينَ الغناءَ ؟

– أحبُّهُ
و أفضِّلُ الرقصَ الذي
ينتابني ليلَ الخميسِ،
وحيدةً في النومِ.
لمْ تسألْ عن الحلمِ الذي
يمشي ورائي ؟!

– لستُ أحلمُ
ليس لي ظلٌّ ليحلمَ لي،
ولا أحدٌ سيحلمُ بي
ويحلمُ بالنيابةِ عن غدي.
هل تسألينَ عن الخُطى
– أعْني خطايَ إليكِ – ؟

– لا أهتمُّ للترتيبِ،
عاطفتي سماءٌ للمدينةِ
لا أفتِّشُ عن وعودٍ
في الهواءِ.

الملحُ أصْدَقُ مَنْ رأيتُ
الأبيضُ
المطرُ
البِحارُ
الصبْرُ
منهُ دمي ودمعي،
هل ترى لوناً
يفسِّرنا سواهُ ؟

– نعم؛ رأيتُ شقيقَهُ. اتْفَقا
على هذا البياضِ الفذِّ، واختلفا
على ميراثِ تلكَ الأرضِ.
كان السُكَّرُ الأقوى،
تزوَّجَ أختَهُ الصغرى (الحليبَ)
فأنْجبا مَلِكاً.
وظلَّ المِلحُ منبوذاً، يفكرُ
كيفَ يرفعُ للسماءِ البحرَ
قرباناً،
ويفعلُ ... والسماءُ تردُّهُ.
فالسُكرُ الفجرُ
الربيعُ
أنوثةُ الأشجارِ، فاكهةً
وقُبْلة طائرينِ تذوَّقا
شهدَ الندى.

والسُكَّرُ الليلُ
السريرُ
الواضحُ المخفيُّ، عاطفةً
وقُبْلة عاشقينِ تمرَّدا.
و السُكَّرُ النهرُ
الكلامُ البِكْرُ
دمعةُ نشوةٍ طفرتْ
على خدِّ المدى.

– أسطورةٌ أخرى!
سأبحو، إن شفيتُ
من الأساطيرِ القديمةِ.
أعرفُ الرؤيا
وأتْبعها. أفسِّرُ ما يخبِّئهُ الزمانُ،
ولا أفسِّرُ ما يخبئهُ المكانُ.
أريدُ من وقتي
قليلاً،
كي أجرِّبَ ضحكتي.
وأريدُ من وقتي
كثيراً
كي أغادرَ دمعتي.
أخشى على الماضي
من الآتي، أقولُ
تصالحا إن شئْتُما
أو فاتركاني الآنَ
في آني
ولي.

– وأنا ... أعيشُ لِلحْظتي.
سفري ... إلى ما ليس يعنيني، ولكنْ
ربَّما تعني المكانَ زيارتي،
فيقُصّ من زمني
هدايا للجمالِ.
الريحُ تحملني،
أنا لا مُلْكَ لي،
فَحقيبتي جيبي. ولكنِّي
إذا صادفتُ عابرةً،
أحاورُ هُدهدينِ
يعاتبانِ يدي،
إذا أنا لم أمسِّدْ
رأسَ كلٍّ منهما
بدمِ الغزالِ.
أنا، وإنْ كنتُ الأخيرَ،
فَلُعْبتي لغتي،
أشكِّلُها كما يحلو
لعاشقةٍ تفكرُ بي
كشاعرها الوحيدِ.
أنا، وإن كنتُ الكثيرَ،
فإنني أصْطَفُّ في جسدي
لكي ترتاحَ مُتعبةٌ،
تفكرُ بي
كقاتلها الجديدِ.
أنا، وإن كنتُ الذي
سأكونُهُ،
ماضيَّ نسيانٌ،
وذاكرتي معلقةٌ
على الآتي الشريدِ.

– أنا أفضِّلُ الاحتفاظَ بذكرياتي.
واقعي خطأٌ كبيرٌ
قد أصحِّحُهُ
إذا أكملتُ لوحةَ ما مضى،
لكنني أسهو
وأبدأُ لوحةً أخرى
فأخطئ.
لستُ أبحثُ عنْ
خياناتٍ وخاناتٍ
لعشَّاقٍ،
أنا معصومةٌ
عن حاضري
ونذرتُ نفسي للبعيدِ،
ولستُ نادمةً على شيءٍ.
أنا ودَّعتُ ما ودَّعتُ منّي،
وانتظرتُ على تلال الوقتِ.
أصعدُ في القريبِ
إلى حريرٍ خارجَ الأسوارِ،
أوْلَدُ مرةً أخرى،
إلى الفرحِ الذي سيجيئني
سأزِفُّ نفسي.

– تابعي
من غير ذاكرةٍ،
تَرَيْ أثرَ الخلودِ
على الطريقِ.
الذكرياتُ أظافرٌ مغروسةٌ
في العقلِ،
والذكرى رصاصتُنا التي
ترتدُّ في أجْسادِنا.

– حاولتُ مراتٍ، ولكنّي
بكيتُ.
أريدُني أصحو
لأصحوَ،
لا لأجْرِدَ مفرداتِ الغائبينَ،
و لا لأخرجَ للتسوُّقِ؛
أشتري عطراً
ويشغلني الحنينُ عن العطورِ،
فمَنْ سيهمسُ لي: أحبُّكِ
كلمّا يدعوه عطري
للتريُّضِ في الظهيرةِ ؟
منْ سيطلبُ في المساءِ
لهُ ولي
كأسيْ عصيرٍ؟
من سيحملني إلى
ليلٍ جنونيٍّ، هنالكَ
في حديقةِ سرِّنا،
نمشي الهوينَى
لا لنوقظَ وردةً
من نومها، لكنْ لنرسمَ
في لحاء السنديانةِ
كفَّنا، أو نكتبَ اسْمينا
على حجرٍ جديدٍ
بين أسماءِ الذينَ
تأكَّدوا من قلبِهم.
و أريدُ لي
قمراً خصوصيّاً يدلِّلُني
ويمسحُ ركبتيَّ بضوئِهِ.

– أخسرتِ يوماً
ما أردْتِ ؟

– أردتُ يوماً
ما خسرتُ،
وليتني ...

– لا
لا تقولي ليْتَ،
لي ندمٌ سيقتلني
على ما فاتَ منّي
قبل أنْ ألقاكِ.
هل أنهيتِ تهجئةَ اليمامِ
حروفَ قمحِكِ ؟

– ليسَ بعدْ.

– لن أبتعدْ
أبداً
أنا لن أبتعدْ

– حسناً .. وبعدْ ؟!

– إنّي أحبُّكِ
منذُ أنْ ...

– وأنا أحبُّكَ
منذُ أنْ ...

– هلْ أنتِ من روما إذنْ ؟

– لا، لستُ من روما،
أتيتُ لأدرسَ الكيميا
وأبحثَ عن وطنْ.
ووجدتُهُ.

– وأنا أتيتُ
فقطْ لأبحثَ عن وطنْ.
ووجدْتُهُ.

ملوكها العارفون

" أنا واحد من ملوك النهاية"
محمود درويش

ونحنُ؛
عيالَ الصحارى، ركعْنا
لأسمائنا في الأعالي، صعدنا
إلى غيمنا، شاهدينَ
بأنَّا جروحُ اللغهْ.

ونحنُ
الذينَ استراحوا
من الطينِ، راحوا
إلى موعدِ الرملِ
في الساعةِ الفارغهْ.

ونحنُ
خَطايا المدينةِ، في الليلِ
نخطو على نارِها، طاهِرينَ
من الناسِ، نهدي الشوارعَ
للخطوةِ الزائغهْ.

نجُرُّ الميادينَ
من ذيلِها، ضاحكينَ
نُعلِّقُ أوراقَنا في أنوفِ
التماثيلِ / أسلافِنا.
نرشقُ الفأسَ في الأدْمِغةْ.

نغوصُ كضوءٍ، إلى قاعِ
أيامِنا، واثِقينَ
لِنُنقذَ أطْلانْطسَ الغارقةْ.

يقولُ صديقي:
أُصولي تعودُ
إلى غربِ آسيا القديمةِ، سيناءَ أقصدُ.
سيناءُ دولةْ.

يردُّ صديقي:
وسيناءُ دولةُ من لا يحبُّ
الحروبَ، أنا من هناكَ
رمتْني إلى النهرِ في سلَّةٍ
كي أُرَدَّ إليها، كما بالنبوءةِ،
لكنّ نهراً كهذا، يخونُ
وينكرُ أصْلَهْ.

أقولُ:
وأمَّا أنا، من جنوبِ البنادقِ.
في الأصلِ جِئنا من المغربِ العربيِّ
لصيدِ التماسيحِ في نهرِ تلكَ البلادِ،
ولكنّ أهلي أشاروا
إليَّ : إذا شئتَ فاذهبْ،
ولاقِ التماسيحَ
وحدكَ،
لا قِبَلَ اليومَ فينا.
وناموا على ضفّةِ النهرِ، أو ربّما
غيّرَ النهرُ أسماءَهم، ربّما
غيّرَ اسمي إلى ظلِّ نخلهْ.

يقولُ صديقي:
– تعبتُ.
يردُّ صديقي:
– تعبتُ.
أقولُ:
– صديقيَّ؛ إنّي تعبتُ،
ولي ما أحبُّ
من اللحظةِ المارقهْ.

يقولُ صديقي:
– أنا مَلِكٌ.
فيردُّ صديقي:
– أنا مَلِكٌ.
وأقولُ:
– أنا واحدٌ من ملوكِ النهاياتِ، أحيا
كما كنتُ بالمرّةِ السابقهْ.

ونحنُ؛
الأدِلاَّءَ، لا نقْتفي
في الطريقِ سِوَانا
إلى باب صحرائنا، مثلما
خرجَ الأنبياءُ، فنحْنُ
أشِقَّاءُ في غربة الأهْلِ و الأمْكِنهْ.

نُسمَّي الذي ضاع منَّا – السنينَ–
أخانا الجميلَ،
يقصُّ الرؤى، والمدينةُ ذئبٌ.
دمٌ في الليالي على كفِّها
دمُهُ دمُنا، والقميصُ
قميصُهْ.

أَلَمْ تكُنِ البئرُ
أرحمَ من دعوة امرأةٍ
فاتِنهْ
ومِنْ مُدنٍ؛ قطَّع الكَيدُ
أشجارَهنَّ، تأجَّجنَّ
في الشهوةِ القاتلهْ.

فيَا أمَّنا المسْتَعيذة بالشِّعْرِ مِنْ
كيدِهِنَّ، البعيدة عن نَهْرِهِنَّ
أَللرمْلِ رحْمُكِ،
للشمسِ لحْمُكِ،
يا أمَّنا الأرملهْ!
أعيدي إلينا الفتى،
كي يعودَ إلى القلبِ فينا
بَصيصُهْ.

يقولُ صديقي:

– رأيتُ كأنّي

أفيضُ على الأرضِ خَمْرا.

– يردُّ صديقي:

وأمّا أنا قدْ

رأيتُ الأصابعَ خمسَ سنابلَ

خضراءَ

والطيْرُ تأكلُ منها.

أقولُ:

– فأمّا الذي

قالَ خمراً رأيتُ،

ففي سِعةٍ من سماءٍ يسيرُ.

وأمّا الذي

قالَ طيراً وحَبّاً رأيتُ،

فيصطادُهُ الْحُبُّ رغْماً.

وأمّا أنا ...

من يفسِّرُ رؤيايَ أنّي

شريدٌ

شريدٌ

شريدُ

ما أسرَّهُ الشاهدُ

على شارعٍ باردٍ
في ضبابِ المدينةِ،
كانَ يسيرُ
كما سارَ من قبْلُ
نحوَ القيامةِ.
كانَ رنينُ الميادينِ
يلقي إليهِ الفراغَ المناوبَ
في واجِهاتِ البنوكِ.
وظلُّ التماثيلِ ينسلُّ
مِنْ قُبَّعاتِ الجنودِ،
إلى النيلِ والسينما والفنادقِ.
والبارُ يجذِّبُ روَّادَهُ بالإضاءةِ
واللغةِ الأجنبيَّةِ
في لافتاتِ النيونِ.

وكانَ عيالُ الشوارعِ يستهزِئونَ
بما تطلبُ العرباتُ
مِنْ الصَّلْصَةِ الآدميَّةِ
عندَ الإشاراتِ.
كانَ الهواءُ بقايا
مِنْ الكُلَّةِ القاهريَّةِ
تملأُ بطنَ الزجاجةِ والكِيْسِ،

تصْعَدُ في حاسَّةِ الساهرينَ
على حفظِ ماءِ الحقيقةِ
في صفحاتِ الروايةِ
والمسرحيَّةِ
والمشْهدِ المتكرِّرِ في سينما القاعِ.

كانَ يسيرُ
على صرخةِ الكروانِ،
ونَهْنَهَةِ الوافدينَ من الريفِ
للبحثِ عن لُقْمةِ العيشِ بينَ المداخنِ.

خانَ القطارُ،
فبعثرَ أسماءَنا في جُرونِ الغيابِ.
جلابيبُنا عوْرةٌ في المدينةِ،
والقومُ مُسْتَنْسَخونَ
وأشباهُ بعضِهمِ البعضِ
في بورْصةِ الخرَسانةِ.
لحْمُ البناياتِ من كِتْفِنا
والرصيفُ أخونا الكبيرُ.

نراهِنُ في غدِنا المستحيلِ
على سفرٍ للخليجِ،
ونُقْسِمُ ...
أنَّا سنحترِمُ الأمنَ فيهِ،
وأنَّا سنربِطُ أوراقَنا في حذاءِ الكفيلِ،
وألاّ نخافَ الحروبَ.

نراهنُ في غدِنا المستحيلِ
على البحرِ ...
إمَّا العبورُ ...
وإمَّا القبورُ؛ شواهِدُها من زعانِفَ.
في البحرِ ميعادُنا،
قدْ نموتُ ...
نموتُ
ولكنَّ لهْجَتَنا أبداً
لنْ تموت.

يسيرُ
وراءَ الحناطيرِ،
تهتزُّ أجراسُها في الأغاني الحديثةِ.
مالَ الصهيلُ
لكورنيشِ نهرٍ؛
تُزيِّنُ أعيادَهُ أُضْحياتُ العرائسِ.
مالَ الصهيلُ؛ انحنى للسِّياطِ.
أَكانَ نشيدَ الحروبِ القديمةِ،
أمْ كانَ بوقَ البراريِّ،
هل كانَ يحفظُ ما يكْتبُ السيفُ
فوقَ الخرائِطِ!
هل كانَ هذا الصهيلُ
مجازاً عن الجِنسِ؛
كانتْ علاقتُهُ العُنفوانَ المباغِتَ
في لحظةِ الرَّكْضِ

مالَ الصهيلُ، انحنى للسوادِ،
لِأسْفلْتِ أسْيادِهِ، وارْتَضى
أنْ يجرَّ المكانَ الثقيلَ،
ويحملَ نعْشَ الزمانِ الجميلِ،
إلى غُرفةٍ خلفَ تلِّ المقطَّمِ،
حيثُ الملوكُ القدامى؛
ضحايا انقلابِ المدينةِ؛
مَنْ صدَّقوا ثورةَ الجيشِ في ليلِ يولْيو.

يسيرُ
تتابِعُهُ الكائناتُ الشريدةُ
والسائحونَ السُّكارى.
ولا لغةٌ تُرشِدُ الغربَ للشرقِ في الشرقِ،
لا صِفةٌ
تشرحُ الجاذبيَّةَ والوقتَ
في معجمِ الكائناتِ البسيطةِ.

كانَ الكلامُ يعوزُ الكلامَ.

ورغْم الغموضِ المراقبِ للكُلِّ
عبْرَ التِلِسْكوبِ فوقَ السحابِ؛
تعُضُّ المصابيحُ إصْبعَ نافذةٍ
- ندماً -
وتقيمُ الستائرُ ليلاً طويلاً،
تسلَّى بهِ الحبُّ في جسديْنِ غريبيْنِ؛
تخلِطُ وجْهيهِما لذَّةُ الفعلِ في الصيدِ.

كانَ يسيرُ
بلا هدفٍ،
قادماً من بدائيَّةِ القلبِ،
من فِطرةِ الروحِ.
عشرينَ قرْناً ...
تغيَّبتِ الأرضُ في كهْفِها
ثمَّ قامتْ،
لتزْدادَ تِسْعاً وتسعينَ أرضاً!

أغابَ عن الأرضِ، أمْ غابتِ الأرضُ عنْهُ؟!

يسيرُ
فتفزِعُهُ مُعجزاتُ الزمانِ المفاجئِ.

يسألُ:
– هل بطلتْ معجزاتِ السماءِ؟!
– أيقدرُ أن يُبْرئَ العقلَ من عقلِهِ،
ويُميتَ ويُحيي بإذنِ السماءِ؛
السماءِ التي غيَّر العلمُ
- علمُ اندماجِ المجرَّاتِ -
أوصافَها
في كتابِ "سينارْيو النهايةِ".

– هلْ يصلحُ القلبُ ما أفسدَ العقلُ ؟!

– هل تصمدُ المعجزاتُ القديمةُ
في وجهِ هندسةِ الآدميِّ وفوضى الخلايا؟!

أغابَ عن الأرضِ أم غابتِ الأرضُ عنْهُ ؟!

وهلْ وضعتْ هذهِ الأرضُ أوزارَها،
و رمَتْ حَمْلَها للكواكبِ والفجَواتِ.
فذابتْ مفاهيمُها وتساوَتْ،
طَفَتْ فوقَ سطحِ الفضاءِ،
فلا وزنَ للموتِ أو للحياةِ، سوى
فوق أرضٍ تُدلِّلُ مولودَها
ذرَّةً ... ذرَّةً
في رمادِ الحروبِ الذكيَّةِ.

كانَ يسيرُ مع المطرِ الصلْبِ
ينْزِفُ قمْحاً.
تراوِدُهُ الطيرُ عنْ نفْسِهِ،
فَيطيرُ
يطيرُ
ويصْعدُ
يصعدُ،
يشهدُ
أنَّ القيامةَ قاب ذراعٍ
وأقْرَبْ.

في وداع داوود

آنَ لي
أن أردَّ السلامَ على إخوتي في النجوعِ،
بلا نبرةِ الغرباءِ،
ولا هيئة المبْعَدينَ المطاريدِ بينَ المدنْ.

آنَ لي
أن يباركَني الأولياءُ المقيمونَ
بين الحقول وبين القبورِ،
وأنذر شمعي لهمْ
إن رجعتُ إلى البيتِ حيَّاً،
مريضاً بآخِرِ حبٍّ،
سليمَ البدنْ.

"في المدينةِ؛ إنّا رأينا تَقلُّبَ وجهِكَ ...
إنّا رأيناكَ غيرَ حسنْ"

آنَ لي
أنْ أعودَ إلى الصيدِ؛
صيد الدبابيرِ
بين المصارِفِ
والهَيْشِ والحَلْفِ.
وحدي، أنا الطفلُ،
لي منطقُ الطيرِ
بين الزرازيرِ،
لي صاحبي؛ هدْهدٌ
يتحدَّثُ باسمِ الغزالةِ والذئبِ
حينَ يقصُّ الحكايةِ:

" كانتْ تجاورهُ في التلالِ،
وكانَ لهُ حكمةُ الزاهدينَ.
ولكنَّها بالدلالِ
وبالصدِّ، أغْرَتْهُ
حتّى رأتْهُ
يُعادي القطيعَ
ويأوي إلى غارِهِ
ذاهلاً في التأملِ، مُسْتوحِشاً نفسَهُ.

للغزالةِ أهلٌ يقولون:
"ما للغزالةِ والذئبِ
إنَّ الغريزةَ أقوى من الحبِّ
لا قلبَ للذئبِ حتى يحبَّ الغزالةَ
فخٌّ لنا إنْ تركنا الغزالةَ
تمنح اسرارنا للذئاب،
اقتلوها ...
كما سلَّمتْ قلبَها للأساطيرِ من خلفنا."

والذئابُ يقولونَ:
"ماذا يريدُ! اتركوهُ إلى عزلةٍ،
فالفرائسُ تبقى فرائسَ.
لا ... ليسَ منَّا،
إذا قال: قلبي يحنُّ إلى مِسْكِها
ليسَ منّا الضعيفُ، وما القلبُ فينا
سوى كَعْبِ "آخيلَ"،
لكننا خالدونَ، فلسنا نصابُ
بداءِ الزمنْ"

آنَ لي
أنْ تعانقَني خالتي /
نخلةٌ
بِنتُ داوودَ، تفْتِلُ من شعرِها
ما يضفِّرهُ البوْصُ،
تكْنسُ بيتَ أبيها، ترشُّ الظلال
على "بيتِ داوود"[1]،
تنخلُ قمحَ الجبالِ
وتملأ غربالَها بالبياضِ،
توزعُ أرغفةَ الشمسِ
فوقَ المصاطِبِ،
ثمّ تعودُ إلى البيتِ
حافيَةً، دون صندلِها
قبل منتصف الليلِ

١- بيت داوود: قرية في صعيد مصر

تسهرُ

تسهرُ

حتَّى يُقال لها:

"لم يكنْ جدُّكَ امرئَ سوْءٍ،

وما كانتِ الأرضُ تنكِرُ مولودَها،

فاحفظي لابن أختكِ حفنةَ ضِحْكٍ،

وهُزّي إليكِ الشواديفَ

يسَّاقطِ الحزنُ من جيبِ جلبابِهِ

في طريقِ المزايرِ

وانتفضي بالصراخِ إذا

زغردتْ بندقيةُ مَنْ

يطلبونَ دمَ الثأرِ منهُ،

ولمْ يقبَلوا ديةً

في القتيلِ الذي غادرَ الأرضَ

منذ ثلاثينَ عاماً،

فلم يشهدِ الطفلُ حادثةَ القتلِ،

لم يتعلمْ فنونَ التخفّي

وقنْصِ المصابينَ باللعنةِ الأبديَّةِ للثأرِ.

لم يقبلوا

غيرَ رأس برأسٍ.

ألا ينظرونَ إلى حاضرٍ يتنفَّسُ،

أو قادمٍ يتلمَّس أرواحهم!

إنّما يتربَّصُ أمْهرُهم بين برجي حمامٍ

وينتظرُ الليلَ:

"تلكَ خصومتُنا،

سوف يحكم فيها الحنينُ إلى فعلِ قابيلَ،

حين يعودُ الفتى كاشفاً روحَهُ

في قماشِ الكَفَنْ"

آنَ لي
أنْ أردَّ الخياناتِ،
تلكَ الهدايا الصغيرةِ،
للأوفياءِ الذينَ يرونَ
على معصمي ندبةً،
خلَّفتْها محاولةُ الإنتحارِ،
فيبتسمونَ على أملٍ
في محاولةٍ ثانيهْ

آنَ لي
أن أقولَ وداعاً
لمنْ يضحكونَ بلا سببٍ واضحٍ
في ليالي المدينةِ،
من صدَّقوا بي
ومنْ آمنوا بالكلامِ البسيطِ الذي لم أقلْهُ
ومنْ ردَّدوا الأغنيهْ

آنَ لي
أن أقولَ أحبُّكِ،
فانتظريني
كما اختارُكِ اللهُ لي،
واحملي غدَنا الطفلَ في صدرِكِ.
انتظريني،
فلا شيءَ يبقى على حالِهِ،
والليالي ... ليالٍ،
فلا تسهري في غيابي،
ولا تشردي في الحديثِ إلى البحرِ،
وانتظريني.
فقد آنَ لي أن أودِّعَ محتويات المكانِ،
وأتركَ في طللِ الحاضرينَ
سلاسلَ قلبي،
وأرحل عن كلّ شيءٍ سواكِ.

خِشاشْ بانْ[1]

لخديجة وزبيدة؛
الأختين؛ جدتي لأبي وجدتي لأمي.

لأبناءِ عمِّي دَوَاويرُ واسعةٌ،
وجنائِنُ مرويَّةٌ بدمٍ،
وصوامِعُ فائضةٌ بالغِلالِ،
وخيلٌ يروِّضها الخوفُ؛ لا حُبّ سيِّدها،
وبنادقُ تحت الأسرَّةِ؛ عمياءُ لا تعرف الحظَّ، لكنّها
بالغريزةِ تحفظ بصمةَ حاملها.

لأبناءِ عمِّي وجوهٌ
عليها غبارُ الجبابينِ،
يرهقها الضوءُ.
لا يشْبه الأخُ منهم أخاهُ سوى
في طقوس الجنازات،
كَمْ قاصِدٍ، غالباً[2]
يترصَّدُ،
حين تنام عصافيرُ فضيَّةٌ
تتلألأ في الليل!

[1] – خشاش بان: اسم قصة شعبية تشبه الشاطر حسن ، في جنوب مصر

[2] – القاصد غالب: مثل شعبي

كمْ عائدٍ، غافلاً
يتفصَّدُ قمحاً على أرضِهِ،
حينَ يخطفه البرقُ،
حين يدق الصدى وتداً
بين ضلعينِ ليِّنتينِ وفوّاحتينِ
برائحةِ القطنِ والطمي والفيضانِ!
ولولا العياراتُ
-تلك التي تتقافزُ فوق رؤوس النخيلِ كسربِ جرادٍ-
لَعادَ لِطَبْليَّةِ الأهلِ
مُكْتفياً بِقِطافِ الرضا.

لأبناءِ عمِّي ابنُ عمٍّ يتيمٌ
- أنا لا سوايَ -
يخافونهُ حَذَرَ الموتِ،
لا يذكرونَ اسمَه في مجالسهم أبداً،
ولكي يدرؤوا اللعنةَ الأزليَّةَ
-تلك التي تتصبَّبُ من كفِّهِ-
يضعونَ على كلّ بابٍ، تمائمَ حظٍّ
رؤوسَ خِرافٍ مُخنَّطةٍ، وفؤوساً حديديَّةً،
وكفوفاً وأحْجِبةً،
ويرشُّونَ مِلحاً على العتباتِ،
ولكنّهم لا ينامون إلاّ إذا
كان كلبُ الحراسةِ مستيقظاً، جائعاً
ويهبّون إنْ همستْ حشراتُ الحقول!

أنا – لا سوايَ –
توَحَّشْتُ؛
أتَّخِذ الذئبَ لي توأماً،
والغزالةَ أمَّاً.
وفي سقفِ كهْفي سريري. أنام نهاراً؛
فعينٌ تنامُ؛ وعينٌ على أولِ الرملِ.
مُلْكتي جَبلي،
والخفافيشُ لي خَدمٌ مخلصونَ.
ولي عزلتي صحبتي،
ودمي ... كلما سقطتْ قطرةٌ منه؛
تنْبتُ موضعَها نخلةٌ
للمساكينِ وابنِ السبيلِ،
ودمعي يضيءُ؛ ولو لم تمَسِّ الليالي سوادي،
ووَشْمي على كتفي غائرٌ مثل قلبي،
وفي قسوتي سكنتْ رحمتي، ليس مثلي
سوى زاهدٍ يتعبَّد لله:
"إنّي عرفتُك
لا مِثل مَنْ يذهبون إلى الحجِّ
كي يرجعوا بكلامٍ على حائطِ الدار
(حَجَّ وزارَ ... وصار له لقبٌ).
إنما مثلَ من قلتَ فيه : إذا شاء شئنا"

أنا – لا سوايَ – شُعوبيَّتي مبدأي
وفروسيَّتي لا تتمُّ سوى بِلصوصيَّتي.
لا أقولُ عن الأرضِ، أرضاً تورَّثُ
لكنّها نخلة للسبيلِ، ولؤلؤة للمشاعِ،
إذا أينَعَتْ ... أطعمَتْ

وإذا عجفتْ ... أخرجتْ خَزْنَها للجياعِ،
إذا أُقْطِعتْ ... يبستْ
وإذا سبَلَتْ ... غمرتْها المسرَّةُ.
لا أطلبُ العدلَ؛ فالعدلُ
طفلٌ بلا أبوينِ، إذا شبَّ
أهمل موطنَهُ وتشرَّد في البحثِ عن أصلِهِ،
ثم عاد وقد صاغَ قانونَهُ.
إنَّما أطلب الحقَّ؛ هذا البسيط الذي يتوكَّلُ
لا يتآكلُ من فرْطِ ما توقدُ الشمسُ جبهتَهُ.

(أنا لي .. وغيري لهُ)
إنّما جِزيَة فُرِضتْ،
ولِمنْ يعملون عليها نصيبٌ.
أقولُ لمن يتبعوني:
فتحتُ لكم جنَّتي،
فكُلوا حنطتي واشربوا خمرتي،
ثمّ كونوا كما النمْلِ؛ خيطاً على حائِطٍ
يتشمَّمُ رائحةَ الدمِ.

كونوا ملائكةً حين تأوون للغارِ،
كونوا زبانيةً حينَ تنتشرونَ بليلِ القُرى،
أحرِقوا الجُرْنَ إن لم يكنْ فيه شيءٌ لكم،
وتواصوا بما ليس في غيركم من جمالٍ،
وطوبى لكم.

أنا – لا سوايَ –
حفظتُ الحواديتَ عن جدَّتي؛
فالأميرةُ نائمةٌ
في سريرٍ من الوردِ، يحرسها
خدم الغولِ في قصرِهِ،
والفقيرُ، الذي شافَ
في صفحة النبعِ صورتَها،
ليس في كفِّهِ غير زهر الخُزامَى.
ولكنَّ ساحرة، تعرفُ السرَّ،
تخبرهُ أن زهر الخزامى نبوءته،
ما عليهِ سوى أن يفكَّ التعاويذَ،
يعبرَ نهراً وبحراً وخمسَ صحارى.

إذنْ .. فالأميرةُ نائمةٌ
والفقيرُ فقيرٌ،
وزهر الخزامى تناثرَ بين الطواحينِ
والطفلُ نامَ ولم ينتبهْ.

عن الكراهية الطيبة

تنظر إلى الحبِّ. ستنتظر دائمًا، لأنك لا تريد الممكنَ. العالم من حولِكَ مجروحونَ، كلّه، وأنت تبتسم. كيف تخبرهم ألاَّ فائدة من البحث عن شفاء، هكذا نولَدُ بهشاشة العواطف والغموض وعدم الفهم. لا تشيروا بأصابعكم للسماء، كلّه إلا هذا؛ ما أجمل ما منحتنا السماء من كَبَدٍ ومصائر فريدة. الاحتجاج الوحيد لديّ على عجزي عن اللحاق بالحاضر. لن يفكروا معك في الحبّ كصراعٍ ضروريّ لحركة الدم المؤلمة في كل جسد، سيفكرون في الجانب الجميل منه، والذي لن يحصلوا عليه أبدًا. تنظر إليها، لماذا تفضلك مثلاً عن سائق سيارتها، أو عن بائع في محل (شانيل) للعطور، أو عن صديق زوج أختها. مثلاً. لأنك سافلٌ تحبّك. لا شكَّ أن النساء يحببنَ السفلة من الرجال. التحدِّي في أن تُصلح امرأةٌ حالَ رجلٍ مُدمنٍ، قد يكون دافعًا للحب. ربّما؛ وإلاّ لماذا تحبُّكَ. سيذهب حبَّها حين تقول لك : لا فائدة. ولأنك لا تدرك معنى الفائدة ستنظرُ إلى الكلمة.

تنظرُ إلى الفائدة. أمطرتْ وَخَلتِ الشوارعُ، كيف تنزعُ معاطف هذه التماثيل. لماذا ليس هناك ولو تمثالٌ واحدٌ عارٍ في تلك المدينة! ولا أقولُ لِملاكٍ عارٍ، بل لرجل .. لامرأة. سأسمحُ بأنّ أوضَعَ كأول تمثالٍ عارٍ في هذه المدينة، بل وربَّما سأحبّ هذا. قد يشفى أحدهم من السرّ حين يمر في ليلة باردة وممطرة كهذه و ينظر لتمثال رجل عارٍ يرقص فوق منصة خشبية تسبح على سطح النيل. تنظر إلى الفائدة. ستمطر أكثر حتى يكرهَ المطرَ مُحبُّوه، و ستستريح أكثر لاطِّراد الخوف والوحدة. تنظر إلى الفائدة. في كل سيءٍ حسنٌ، والعكس. حين تملُّ من مبررات اللذة في الألم، ستنظر إلى خسارتك.

تنظرُ إلى الخسارة. أنت تُكسّرُ لعَبًا أكثر من المعتاد بالنسبة لطفل بثلاثين شمعةٍ مُنطفئةٍ. ستصحو مِرارًا لتسأل كالعادة: أين أنا؟!. لن تتذكر كيفَ نِمتَ، مهما حاولتَ كل مرة أنْ تلاحظ وقوعك في هذا الفخّ؛ فخّ النوم المفاجيء بلا وعيٍ. مهما حاولت أن تكون واعيًا حتى لحظة الغفلة التامة، ومهما حاولتَ أنّ تفكرَ بأشياء تستحقّ الحلم، ستحلم بما لا تختار. يبدو أن القائمين على لعبة الحلم لا يحبّونك. تنظر إلى الخسارة. مهما فرحتَ، بعد ثانيةٍ لن تستطيع استرجاع شيءٍ من ذلك، قطعةُ زَمَنٍ واسعة هناك، أقلُ من ميلليمتر هنا. انسحاق، أن تدخل من هذا الحيز الضيق الشائك، وخلفَكَ صنائعُ رحْبَةٌ في عالمٍ ضائعٍ ، ولديكَ فزع ناجٍ وحيدٍ من باخرة فخمة للرحلات وهي تغرق وأنت تنظر إليها، وقاربٌ صغير يأخذك حسب الأمواج بعيدًا حيث لا تدري، أو لا ترى، فأنت تنظر خلفكَ. تنظر إلى الخسارة. من ضيِّقٍ لأضيق. فتنظر إلى حزنك.

تنظر إلى الحزن. تتحاشى أن تقع العينُ على العينِ. لن تخدعَ أحدًا بأنك صافٍ و بريءٍ. عينان مُذنِبتانِ، يدانِ قتلتا من قبل. أعضاء ناقمةٌ على بعضها البعض. تدركُ أن أحدًا لمْ يخُنكَ من قبل، وأنك خنت الكلّ بمن فيهم نفسك. ما تدسُّه في الحكايات من اعتراف بالذنب يبدو سطحيًّا جدًّا في الحبكة. تنظر إلى الحزن. لن يفارقَك إلا مَنْ وما تحبُّ. سيبقى لك دائمًا ما يغذِّي الكوابيسَ بالوقائع، وواقعيةُ الكابوسِ تجعله أكثر رعبًا. تهجسُ وتوسوسُ بالشَّططِ. السخرية أنْ تُعَذِبَ نفسك دون إرادة. والأكثر سخرية ما يفوق طاقتك من ألمٍ ناتجٍ. تنظر إلى الحزن. وتبكي. أمام امرأة غريبة، هي ليستْ أمّكَ. تبكي. أمامَ حشْدِ الركابِ المتفرجينَ على جثثٍ في باصٍ، ولا حيلةَ لإخراج أحد من عجينة الحديد والدم واللحم. ينظرون لكَ: كيف خرجتَ؟!. تنظر إلى جسمك. لا غيرَ دمٍ يغطيكَ. تنزع ملابسك كلَّها على جانب الطريق الصحراوي، في آخر ليلة من يناير، وتبكي. يموتُ شاعرٌ فتبكي! أنتَ تنجو كثيرًا، فقط لتبكي أكثر. ولِتنظر إلى ندمِكَ.

تنظر إلى الندمِ. ماذا يروي كلّ هذا العطش. لا يمكنك أن توقف نمو كراهيتك لنفسك. كراهيتك الطيبة للآخرينَ هي كراهيتك خالصة السوء لذاتك.

كراهيتي كالمحبةِ، طيَّبةٌ، لو رأيتُ لها
موضِعًا عاطفيًّا، لربَّيتُها
فيه مثل الافاعي، ودرَّبتها
في الخرابِ على اللدغِ، لكنَّها
هشَّةٌ وتقلدني في التناسي.
كراهيتي تخرجُ الآن منّي، وتتخذ الناسَ
شكلاً لها. وتحدِّقُ بي أينما سِرتُ
ترتادَ مثلي أماكنَ غامضةً.
ترى ندمك فترى خرابكَ. يتفحُّم كلّ ما تلمسه. أنت جمرةٌ معتمة. وروحك خرابٌ.
زنزانةٌ رطْبةٌ، ومبطَّنةٌ بالطحالبِ
ضيِّقةٌ. أعرفُ رائحةَ البحر، لكنّ
روحي خرابٌ.
وأعرفُ لونَ النبيذ وطعمَ الفراولةِ
لكنّ روحي خرابٌ.
وأعرف لمسةَ نهدينِ محتقنينِ
لكنّ روحي خرابٌ.

فسدتَ وسقطتَ عن الشجرة التي أرادها لكَ سيِّدُك. صرتَ معطوبًا، وتفوح بالكحول. وحين تفيقُ ستنظرُ إليكَ.